عصر الخلفاء فى مصر الاسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٢ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة [١] ؛ وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ (١٣ أغسطس سنة ٩٨٥) ، وأمه نصرانية من الملكية ، وكان لها أيام العزيز نفوذ كبير فى الدولة ، حتى أنه عين أخويها بطريقين للملكية ، أحدهما بالاسكندرية ، والآخر لبيت المقدس ، مخالفاً بذلك الرسوم الكنسية المقررة ؛ وكان من أثر نفوذها أن سياسة التسامح الدينى التى اتبعت فى عهد المعز ، قويت أيام العزيز ، وتمتع النصارى واليهود بكثير من الحريات والنفوذ . وقد كان لهذا المنبت أثره بلا ريب فى نفس الحاكم ، وتكوين عقليته الدينية كما سنرى ؛ ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم [٢] ، ولكنه ترك — من زوجه النصرانية أيضاً — ابنة تدعى سيدة الملك ، كانت أكبر من أخيها ببضعة أعوام ؛ وكانت حازمة عاقلة ذات نفوذ . ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلاً فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) وبويع بالخلافة يوم وفاة أبيه . وقد انتهى الينا وصف لبعض المناظر التى أحاطت بتولية الخليفة الصبى ، وهى مناظر شائقة مؤسية معاً ، نقلها إلينا المسبحى ، وهو مؤرخ معاصر ووزير الحاكم وصديقه ، نقلاً عن الحاكم ذاته ؛ قال : « قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى اليه وقبلنى وضمنى اليه ، وقال : وا غمّى عليك يا حبيب قلبى ؛ ودمعت عيناه . ثم قال : امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية ، قال : فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه . قال : فبادر إلى برجوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ؛ قال : فنزلت ، فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة [١] »

وقع هذا المنظر فى مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا ؛ وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان — سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب فخم تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ؛ وأمامه جثة أبيه ، وقد وضعت فى عمارية برزت منها قدماه ؛ وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبى ، وبين يديه البنود والرايات ؛ وقد ارتدى دراعة مصمت وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده رمح . فدخل القاهرة عند مغيب الشمس فى هذا الحفل الرهيب الفخم ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ؛ فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء إلى جانب أبيه المعز فى حجرة القصر . وفى صباح اليوم التالى ، أعنى يوم الخميس ، بكر سائر رجال الدولة إلى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الايوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ؛ وخرج من القصر إلى الايوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الايوان فقبلوا الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالأمامة وباللقب الذى اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » ونودى فى القاهرة والبلدان ، أن الأمن موطد والنظام مستتب ، فلا مؤونة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال [٢]

وأوصى العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة

(١) كان عمره بالضبط احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام (المقريزى ٤ — ٦٨)

(٢) رزق العزيز قبل ولده الحاكم ، بابن يسمى محمداً ، ومنحه ولاية عهده ، ولكنه توفى قبل وفاته (نهاية الأرب — نسخة دار الكتب الفتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠)

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) ولم يصل إلينا تاريخ المسبحى ذاته ، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين

(٢) نقل إلينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القيروان (ج ٢ ص ٢٠١) . وراجع أيضاً خطط المقريزى (ج ٤ ص ٦٨) والنجوم الزاهرة (ج ٣ ص ١٢٣)

هم برجوان الصقلبي خادمه وكبير خزائنه ؛ والحسن بن عمار الكتامي زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ؛ ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . وعهد بالوصاية الفعلية إلى الأول والثاني . وكان برجوان ، ويسمى أبا الفتوح ، خصياً صقلبياً ، ربي في القصر ، واصطفاه العزيز بالله وولاه أمير القصر ، وخلع عليه لقب « الأستاذ » وهو من ألقاب الوزارة في الدولة الفاطمية ، وعهد اليه بمهام الأمور ، وأولاه ثقة عظيمة . وكان ابن عمار رجلاً قوي الشكيمة ، وافر العصبة ؛ ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه أوثق اتصالاً بالخليفة الصبي ، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه ؛ فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين واشتدت المنافسة بينهما ، وقام ابن عمار بتدبير الشئون بادئ بدء ، وتلقب بأمين الدولة ، وهو أول لقب من نوعه في الدولة الفاطمية ؛ واقتسم الكتاميون من صحبه وشيعته السلطات والمناصب ، وعاثوا في شئون الدولة ومرافقها ؛ وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب ؛ ولكن برجوان كان ساهراً يرقبه ويتلمس الفرص لمناوأته وإسقاطه ، ويدس له الدسائس ، ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين عليه ؛ فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله ؛ ووثب جماعة من الزعماء والجند بتحريض برجوان بالكتاميين وأثخنوا فيهم ، فتوارى ابن عمار ، واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه [1] ، عندئذ قبض برجوان على زمام الأمور ، واستأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه ، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً يدعى فهد بن ابراهيم ولقبه بالرئيس ، وفوض اليه النظر والتوقيع والمراجعة . ولزم برجوان الحاكم ، يقيم معه بالقصر ، ويسهر على توجيهه ، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ ؛ واستبد بكل أمر في الدولة ؛ واستقرت الأمور حيناً

واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف ؛ وفي عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل في الشام والمغرب ، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة ؛ فسير برجوان جيشاً إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة ، فقاتل الثوار في عدة مواقع ، وأخضعهم تباعاً ،

(١) راجع ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠١) — وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠ و ٤١) والمقريزي (ج ٣ ص ٥٧٤)

واستعاد دمشق ؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) في عدة معارك في شمال الشام ، وكانوا قد انتهزوا فرصة الاضطراب للاغارة على الثغور وتأييد الخوارج ؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال . وسير برجوان جيشاً آخر إلى برقة حيث اضطرمت الثورة ، فرد النظام اليها ، واستعمل عليها يانسا الصقلبي . وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ؛ ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والادارة حتى عهد المعز لدين الله ؛ ولكن ولده العزيز مال إلى اصطناع الموالي من الترك والصقالبة فقدمهم في القصر وفي الجيش ، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء والمغاربة [1] وكانت سياسة برجوان ترمي إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة ، وتجريدهم عن الولايات والثغور ؛ وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقلبيين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وأن يسيرهم طبق أهوائه ؛ فعين إلى جانب يانس ، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور ، مثل ميسور الخادم والي طرابلس ، ويمن الخادم والي غزة وعسقلان ، وعين بالقصر عدداً كبيراً منهم [2] وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم ، وعقدت بين بلاط القاهرة والأمبراطور بزيل الثاني قيصر قسطنطينية أواصر الصداقة والمهادنة مدى حين [3]

* * *

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته ؟ لقد كان برجوان بلا ريب يحجبه ما استطاع عن الاتصال برجال الدولة وبشئونها ، ويدفع به ما استطاع الى مجالي اللهو واللعب ؛ وكانت أم الحاكم وهي نصرانية كما قدمنا ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع في ظل هذه الوصاية الخطرة عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن برجوان لم يفسح لها أي مجال للتدخل في شئون الدولة . غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذي يتبوأه ؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه ، ولم يلبث أن فطن الى موقف برجوان ، واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشئون . ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة ، وأضحى الطفل

(١) المقريزي — ج ٤ ص ٦٨ — وج ٣ ص ١٧ و ١٨
(٢) المقريزي — ج ٣ ص ١٨
(٣) ابن الأثير — ج ٩ — ص ٤٢

فتى يافعاً شديد اليقظة والطموح . وكان برجوان يذهب فى طغيانه وعسفه الى حدود بعيـــدة ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحقد ، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه الى العمل على تقويض سلطانه ومكانته . واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته فى مجالس الأنس والغنـاء والطرب ، ولم يفطن برجوان من جهة أخرى الى ما وقع فى نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ؛ وذهب فى استهتاره الى مدى شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ، وربما ذهب برجوان الى حـد الاساءة الى الحاكم ونقض أوامره ، بل الى حد إهانته والتنكر له ، ويقص علينا المقريزى منظراً من هذه المناظر التى اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار اليه وقد ثنى رجله على عنق فرسـه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والاهانات المثيرة[1]

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء ، فأضمر التخلص من ذلك الوصى الطاغيـــة ، وربما تأثر فى هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ولاسيما ريدان الصقلبى حامل المظلة وخصمه القوى داخل البلاط ؛ ولكن لاريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة ، وأخذت تتفتح فى نفسه الوثابة تلك الأهواء العنيفة المضطرمة التى بلغت ذروتها فيما بعد . وعلى أى حال فقد حكم على برجوان بالموت ؛ وفى ذات مساء بعث إليه الحاكم للركوب معه ، وانتظره فى إحدى حدائق القصر ومعه ريدان حامل المظلة ، فوافاه برجوان هنالك ؛ وبعد أن سلم سار الحاكم حتى خرج من باب الحديقة ، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه فى عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به ، فأثخنوه طعناً بالخناجر ، واحتزوا رأسه ، ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ ـ ١٠٠٠م) ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمه عفيف ، فاضطربت البطانة ، وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر ؛ وصاح فيهم ريدان : « من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور » فانصرف الناس منزعجين ،

(١) المقريزى ج ٣ ص ٥

وفى نفس المساء اتخذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور ، واستدعى الرئيس فهدا ، وهدأ روعه وأقره فى منصبه ؛ وصودرت أموال برجوان وكانت عظيمة طائلة ، واختفى أصدقاؤه من الميدان[1]

— ٤ —

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام فقط من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة ، وأن يستخلص السلطة لنفسه ، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيقى . وكان الحاكم يومئذ فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، مضطرم النفس والأهواء ، ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان ، ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلى . وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ، فلما توفى العزيز قلد الحسين ديوان البريد والانشاء ؛ ولما قتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منـه مقاماً وأجدر بتولى الشئون العامة ؛ فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ، وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه فى سجل التعيين «بقائد القواد» وعكف الحسين على تدبير الشئون بمعاونة خليفته الرئيس فهد ، وأمر أن تبلغ اليه المهام والظلامات فى مكانه بالقصر وألا يقصد أحد داره ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمى « القائد » دون تعظيم أو تفخيم ، وألا يمنع أحد من مقابلة الحاكم أو الاتصال به ؛ وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى خلف أباه فى منصب القضاء ، أعظم رجلين فى الدولة ؛ واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتى

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ؛ ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتبحث فيه الشئون العامة ؛ وكانت هـذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال فى ظلماته . بيد أنه أبطل مجلسه الليلى بعد حين . وتوفى جيش ابن الصمصامة والى الشأم ، فعين الحاكم مكانه خل بن تميم ، ولما توفى لأشهر من ولايته عين مكانه على بن فلاح ؛ وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المعز ، ولعله كان يقصد فى ذلك أيضاً إلى هدم سياسة برجوان فى اصطفاء الصقالبة . ووفد عليه ولد جيش بن الصمصامة يحمل وصـــية أبيه التى يوصى فيها بجميع أمواله

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٥